حسن التسمت في الصمت

للإمام

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

السيوطي

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

نجم عبد الرحمن خلف

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

حسن السمت في الصمت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إنَّ كتاب «الصمت وآداب اللسان» الذي هو «الأصل» لهذا المختصر. ثمرة ناضجة من ثمار الحافظ ابن أبي الدنيا المعروف بقدمه الراسخة في الزهد والرقائق، والدربة الكبيرة في معالجة العلل الاجتماعية والأخلاقية. فهو المربي والمؤدب والقدوة.

وقد صنفه في عصر من أكثر العصور نشاطاً وحيوية في جمع الأحاديث واستقصائها وتنقيتها، فعملت فيه الخبرة الحديثية، والخبرة التربوية عملها فآتت أُكلها ضعفين.

وتضمّن الكتاب بلسان الحال صورةً عن الواقع الذي كان يعيشه المجتمع الإسلامي وقتذاك، مع محاولةٍ لعلاجه، ذلك أن ابن أبي الدنيا لم تأته فكرة الكتاب من فراغ، وإنما جاءت ضرورة ملحة تقتضيها أجواء المجتمع الإسلامي. فقد كانت التيارات على أشدها، سياسية وفكرية، كالإثنى عشرية، والإسماعيلية، والقرامطة، والخوارج، والزنج، والمعتزلة، ومدارس فقهية وحديثية وغير ذلك.

كما أنَّ الناشئة المسلمة لم تدرك أيام الجهاد والكفاح، ولم تأخذ حظّها من التربية والصّقل والإعداد، فولدت في مجتمع مستقر نسبياً، فكان من الطبيعي أن تصرف جلّ طاقتها إلى المناقشات والمحاورات والجدل، وقد تنتهي بهم إلى التنازع والتخاصم والعداء، فتكون الغيبة والنميمة، والجدل،

والفحش في القول؛ من سب ولعن وتكفير، وتقعر في الكلام، وغير ذلك من الحالِقات، التي تحلق الدِّين وتمزّق صفوف المسلمين، وتذهب صفاء المؤمنين.

فالخلاف أوله تشهير وإفتتان، ثم يتحول إلى تكفير واقتتال، وهذا شأن الفتن دائماً، فإنها تتطور وتعسر السيطرة عليها، وكم في التاريخ من مواعظ.

فأراد ابن أبي الدنيا أَنْ يُقَعِّدَ لأسُسِ السلوك الإسلامي في عصر الفتن، واستطاع بنظريته التربوية أن يوجههم لتأسيس مجتمع السلامة والعلم من بعد ما كادت الخلافات تستهلك ما عند الناس من خير، فسطَّرَ لهم خلاصة الأجيال السابقة، وما حَذَّرَ منه أئمةُ الصدق والهدى من المربين والعلماء الربانيين.

وكان يعلم أن هؤلاء الأخيار لم يقولوا كلامهم اعتباطاً، بل كانت تأملاتهم قائمة على ملاحظة وتفحص لمسيرة جيلهم، فيقدِّمون له خلاصة تجاربهم وأفكارهم.

فَبَيَّن لهم ابن أبي الدنيا أخلاق السلف وما كانوا عليه من الأُخوة والود والورع والزهد، فكان فعلهم يسبق قولهم، وكان صلاح ألسنتهم من صلاح قلوبهم. وبوّب لهم باباً أسماه «ما أمر به الناس أن يستعملوا فيه أنفسهم من القول الحسن للناس أجمعين» بالإضافة إلى (٢٥) باباً من أبواب اللسان. فأرادهم أن لا يتمسكوا بفرع على حساب أصل، ويدندنوا حول سنن قد تُفوت معها فرائض الأخوة.

وما أحوج الإسلاميين اليوم إلى هذه الدُّرَر الإيمانية والتوجيهات التربوية فيسدوا على أنفسهم باب المِراء والجدل، الذي هو طريق البطالة والذي به يذهب الودُّ وتضيع الأُخوة.

والحافظ السيوطي وإن اختصر باباً واحداً من «الأصل» وهو الباب المتضمن «لحفظ اللسان والصمت عن الخوض في الباطل». فإنه أتى بجزء

كبير من مقصد صاحب «الأصل» في محاولته لإبراز النصوص الشرعية والتربوية التي تنبّه إلى خطورة «اللسان» وفعله في البناء أو الهدم، وفي إعلاء الحق أو طمسه. وإلى الاجتهاد في وضع «الكلمة» في مكانها السديد «وقولوا قولاً سديداً»[1].

كما أكد بكتابه هذا موافقاً لصاحب «الأصل»: بأن هذه النصوص ما هي إلّا ترجمة حية لأخلاق السلف الصالح وآدابهم، وأثراً مهماً من آثار انطباعهم بالتوجيهات النبوية، وتمثلهم بها في سلوكهم وحياتهم.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

ترجمة
الإمام عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر السيوطي
مؤلف الكتاب

لقد أغنى الإمام جلال الدين السيوطي الباحثين عن تاريخه وذكر شيوخه ومصنفاته ونشأته، فكتب لنفسه ترجمة وافية في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» عند الكلام على من كان بمصر من الأئمة المجتهدين ١/ ٣٣٥ ـ ٣٤٤ فقال رحمه الله[١].

عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر بن محمد سابق الدين الأسيوطي كان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهلّ رَجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وحُملت في حياة أبي إلى الشيخ محمد المجذوب، رجل كان من الأولياء بجوار المشهد النفيسي، فَبَرَّك عليَّ. ونشأت يتيماً فحفظت القرآن ولي دون ثمانِ سنين. ثم حفظت العُمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك، وشرعت في الاشتغال بالعلم من مستهل سنة أربع وستين، فأخذت الفقه والنحو من جماعة من الشيوخ، وأخذت الفرائض عن العلّامة فَرضيّ زمانة الشيخ شهاب الدين الشار مساحيّ، الذي كان يقال: إنه بلغ السنَّ العالية، وجاوز المائة بكثير ـ والله أعلم بذلك ـ قرأت عليه في شرحه على المجموع، وأُجزت بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين.

وقد ألفت في هذه السنة، فكان أول شيء ألفته شرح الاستعاذة والبسملة، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدِّين البُلقيني، فكتب

---

(١) تصرفت في ترجمته ببعض الاختصار الطفيف.

عليه تقريظاً، ولازمته في الفقه إلى أن مات؛ فلازمت ولده، فقرأت عليه من أول التدريب لوالده إلى الوكالة، وسمعت عليه من أول الحاوي الصغير إلى العدد، ومن أول المنهاج إلى الزكاة، ومن أول التنبيه إلى قريب من باب الزكاة، وقطعة من الرّوضة من باب القضاء، وقطعة من تكملة شرح المنهاج للزركشيّ، ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها وأجازني بالتدريس والإفتاء من سنة ست وسبعين، وحضر تصديري.

فلما تُوفِّي سنة ثمان وسبعين لزمت شيخ الإسلام شرف الدّين المناويّ. فقرأتُ عليه قطعة من المنهاج، وسمعتهُ عليه في التقسيم إلّا مجالس فاتتْني، وسمعت دروساً من شرح البهجة، ومن حاشية عليها، ومن تفسير البيضاويّ.

ولزمتُ في الحديث والعربية شيخنا الإمام العلّامة تقي الدين الشبليّ الحنفيّ، فواظبته أربع سنين، وكتب لي تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية تأليفي، وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه، ورجع إلى قولي مجرداً في حديث فإنه أورد في حاشيته على الشفاء حديث أبي الجمرا في الإسرا، وعزاه إلى تخريج ابن ماجه، فاحتجت إلى إيراده بسنده، فكشفت ابن ماجه في مظنته، فلم أجده، فمررت على الكتاب كله، فلم أجده، فاتهمت نظري، فمررت مرة ثانية فلم أجده، فعدت ثالثة فلم أجده؛ ورأيته في معجم الصحابة لابن قانع، فجئت إلى الشيخ وأخبرتُه، فبمجرّد ما سمع مني ذلك أخذ نسخته، وأخذ القلم فضرب على لفظ ابن ماجه، وألحق ابن قانع في الحاشية؛ فأعظمت ذلك وهبتهُ لعظم منزلة الشيخ في قلبي، واحتقاري في نفسي، فقلتُ: ألا تصبرون، لعلكم تراجعون! فقال: لا، إنما قلدت في قولي ابن ماجه البرهان الحلبيّ. ولم أنفكّ عن الشيخ إلى أن مات.

ولزمت شيخنا العلّامة أستاذ الوجود محيي الدين الكافيَجيّ أربع عشرة

سنة؛ فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول والعربية والمعاني وغير ذلك؛ وكتب لي إجازة عظيمة.

وحضرتُ عند الشيخ سيف الدين الحنفيّ دروساً عديدة في الكشّاف والتوضيح وحاشيته عليه، وتلخيص المفتاح والعَضُد.

وشرعتُ في التصنيف في سنة ست وستين، وبلغتْ مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه.

وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور، ولمّا حججت شربت من ماء زمزم، لأمور؛ منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البُلقينيّ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر.

وأفتيتُ من مستهلّ سنة إحدى وسبعين.

وعقدت إملاء الحديث من مستهلّ سنة اثنتين وسبعين.

ورزقت التبحّر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع؛ على طريقة العرب والبُلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، والذي أعتقده أنّ الذي وصلتُ إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنُّقول التي اطّلعت عليها فيها، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي؛ فضلاً عمّن هو دونهم، وأمّا الفقه فلا أقول ذلك فيه؛ بل شيخي فيه أوسع نظراً، وأطول باعاً، ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه والجدَل والتصريف، ودونها الإنشاء والتوسّل والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطبّ، وأمّا علم الحساب فهو أعسر شيء علي وأبعده عن ذهني؛ وإذا نظرت في مسألة تتعلّق به، فكأنما أحاول جبلاً أحمله.

وقد كَمُلت عندي الآن آلات الاجتهاد[1] بحمد الله تعالى؛ أقول ذلك تحدّثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً؛ وأيّ شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها

(١) في الأصل الجهاد، ولعل الصواب ما أثبتناه.

بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر! ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقليّة والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله، لا بحولي ولا بقوتي، فلا حول ولا قوة إلّا الله، ما شاء الله، لا قوة إلّا بالله.

وقد كنت في مبادىء الطلب قرأتُ شيئاً في علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته في قلبي. وسمعتُ أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك، فعوّضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم.

وأمّا مشايخي في الرواية سماعاً وإجازة فكثير؛ أوردتهم في المعجم الذي جمعتهم فيه، وعدّتهم نحو مائة وخمسين؛ ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهمّ وهو قراءة الدراية.

وهذه أسماء مصنفاتي لتستفاد:

فن التفسير وتعلقاته والقراءات: الإتقان في علوم القرآن، الدرّ المنثور في التفسير المأثور. ترجمان القرآن في التفسير. المسند، أسرار التنزيل يسمّى قطف الأزهار في كشف الأسرار، لباب النقول في أسباب النزول، مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، المهذب فيما وقع في القرآن من المعَرّب، الإكليل في استنباط التنزيل، تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلي، التحبير في علوم التفسير، حاشية على تفسير البيضاويّ، تناسق الدرر في تناسب السور، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير، مفاتح الغيب في التفسير، الأزهار الفائحة على الفاتحة، شرح الاستعاذة والبسملة، الكلام على أول الفتح، وهو تصدير ألقيته لمّا باشرتُ التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخنا البُلقينيّ، شرح الشاطبية، الألفيّة في القراءات العشر، خمائل الزهر في فضائل السور، فتح الجليل للعبد الذليل في الأنواع البديعيّة المستخرجة من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وليّ الذين آمنوا. . . ﴾ الآية، وعدّتها مائة وعشرون

نوعاً، القول الفصيح في تعيين الذبيح، اليد البسطى في الصلاة الوسطى، معترك الأقران في مشترك القرآن.

فنّ الحديث وتعلقاته: كشف المغطّى في شرح الموطّا، إسعاف المبطّا برجال الموطا، التوشيح على الجامع الصحيح، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود، شرح ابن ماجه، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، شرح ألفية العراقيّ، الألفية وتسمّى نظم الدرر في علم الأثر وشرحها يسمى قطر الدرر، التّهذيب في الزوائد على التقريب، عين الإصابة في معرفة الصحابة، كشف التلبيس عن قلب أهل التدليس، توضيح المدرك في تصحيح المستدرَك، اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، النكت البديعات على الموضوعات، الذيل على القول المسدد، القول الحسن في الذبّ عن السنن، لب اللّباب في تحرير الأنساب، تقريب العزيب، المدرج إلى المدرج، تذكرة الموتسِي بمنْ حدّث ونسِي، تحفة النابة بتلخيص المتشابه، الروض المكلل والورد المعلل في المصطلح، منتهى الآمال في شرح حديث إنّما الأعمال، المعجزات والخصائص النبويّة، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، البدور السافرة عن أمور الآخرة، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، فضل موت الأولاد، خصائص يوم الجمعة، منهاج السنّة، ومفتاح الجنّة، تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش، بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال، مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة، مطلع البدرين فيمن يؤتَى أجرين، سهام الإصابة في الدعوات المجابة، الكلم الطيّب، القول المختار في المأثور من الدعوات والأذكار، أذكار الأذكار، الطبّ النبويّ، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة، ويسمّى أيضاً التعظيم والمنّة: في أنّ أبوي النبيّ ﷺ في الجنّة، المسلسلات الكبرى، جياد المسلسلات، أبواب السعادة في أسباب الشهادة، أخبار الملائكة، الثغور الباسمة في مناقب السيدة آمنة، مناهج الصفّا في تخريج أحاديث الشّفا، الأساس في مناقب بني العباس، درّ السحابة فيمن دخل مصر

من الصحابة، زوائد شُعَب الإيمان للبيهقيّ، لمّ الأطراف وضمّ الأتراف، أطراف الأشراف بالإشراف على الأطراف، جامع المسانيد، الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة، الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، تخريج أحاديث الدرّة الفاخرة، تخريج أحاديث الكفاية يسمى تجربة العناية، الحصر والإشاعة لأشراط الساعة، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، زوائد الرجال على تهذيب الكمال، الدرّ المنظم في الاسم المعظم، جزء في الصلاة على النبي ﷺ، مَنْ عاش من الصحابة مائة وعشرين، جزء في أسماء المدلّسين، اللمع في أسماء مَنْ وضع، الأربعون المتباينة، درر البحار في الأحاديث القصار، الرياضة الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة، المرعاة العليّة في شرح الأسماء النبوية، الآية الكبرى في شرح قصة الإسرا، أربعون حديثاً من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، فهرست المرويَّات، بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد، أزهار الآكام في أخبار الأحكام، الهبة السنيّة في الهيئة السنية، تخريج أحاديث شرح العقائد، فضل الجلد، الكلام على حديث ابن عباس: «احفظ الله يحفظك»، هو تصدير ألقيتُه لمّا وليت درس الحديث بالشيخونية، أربعون حديثاً في فضل الجهاد، أربعون حديثاً في رفع اليدين في الدعاء، التعريف بآداب التأليف، العشاريات، القول الأشبه في حديث: «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه»، كشف النقاب عن الألقاب، نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير، من وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة، ذم زيارة الأمراء، زوائد نوادر الأصول للحكيم الترمذي، تخريج أحاديث الصحاح يسمّى فلق الصباح، ذمّ المكس، آداب الملوك.

فن الفقه وتعلقاته: الأزهار الغضة في حواشي الروضة، الحواشي الصغرى، مختصر الروضة يسمى القنية، مختصر التنبيه، يسمى الوافي، شرح التنبيه، الأشباه والنظائر، اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق نظم الروضة يسمى الخلاصة، شرحه يسمى رفع الخصاصة، الورقات المقدمة، شرح الروض، حاشية على القطعة للأسنوي، العذب السلسل في تصحيح الخلاف المرسل، جمع الجوامع، الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع،

مختصر الخادم، يسمى تحصين الخادم، تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع، شرح التدريب الكافي، زوائد المهذب على الوافي، الجامع في الفرائض، شرح الرحبية في الفرائض، مختصر الأحكام السلطانية للماوردي.

الأجزاء المفردة في مسائل مخصوصة على ترتيب الأبواب: الظفر بقلم الظفر، الاقتناص في مسألة التماص، المستطرفة في أحكام دخول الحشفة، السلالة في تحقيق المقر والاستحالة، الروض الأريض في طهر المحيض، بذل المسجد لسؤّال المسجد، الجواب الحزم عن حديث التكبير جزم، القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة، ميزان المعدلة في شأن البسملة، جزء في صلاة الضحى، المصابيح في صلاة التراويح، بسط الكف في إتمام الصف، اللمعة في تحقيق الركعة لإدراك الجمعة، وصول الأماني بأصول التهاني، بلغة المحتاج في مناسك الحاج، السلاف في التفضيل بين الصلاة والطواف، شد الأثواب في سدّ الأبواب في المسجد النبوي، قطع المجادلة عند تغيير المعاملة، إزالة الوهن عن مسألة الرهن، بذل الهمّة في طلب براءة الذمّة، الإنصاف في تمييز الأوقاف. أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، الزهر الباسم فيما يزوج فيه الحاكم، القول المضي في الحنث في المضي، القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق، فصل الكلام في ذمّ الكلام، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب، تقرير الإسناد في تيسير الاجتهاد، رفع منار الدين وهدم بناء المفسدين، تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء، ذمّ القضاء، فضل الكلام في حكم السلام، نتيجة الفكر في الجهر بالذكر، طيّ اللسان عن ذمّ الطيلسان، تنوير الحَلَك في إمكان رؤية النبيّ والملَك، أدب الفتيا، إلقام الحجر لمن زكّى سباب أبي بكر وعمر، الجواب الخاتم عن سؤال الخاتم، الحجج المبِينة في التفضيل بين مكة والمدينة، فتح المغالق مِن أنْت طالق، فصل الخطاب في قتل الكلاب، سيف النظار في الفرق بين الثبوت والتكرار.

فن العربية وتعلقاته: شرح ألفية ابن مالك، يسمى البهجة المضّية في

شرح الألفية، الفريدة في النحو والتصريف والخط، النكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والنزهة، الفتح القريب على مغنى اللبيب، شرح شواهد المغني، جمع الجوامع، شرحه يسمى همع الهوامع، شرح الملحة، مختصر الملحة، مختصر الألفية ودقائقها، الأخبار المروية في سبب وضع العربية، المصاعد العليّة في القواعد النحوية، الاقتراح في أصول النحو وجدله، رفع السِّنّة في نصب الزنة، الشمعة المضيئة، شرح كافية ابن مالك، درّ التاج في إعراب مشكل المنهاج، مسألة ضربي زيداً قائماً، السلسلة الموشحة، الشهد، شذا العرف في إثبات المعنى للحرف، التوشيح على التوضيح، السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل، حاشية على شرح الشذور، شرح القصيدة الكافية في التصريف، قطر الندا في ورود الهمز للندا، شرح تصريف العزّي، شرح ضروريّ التصريف لابن مالك، تعريف الأعجم بحروف المعجم، نكت على شرح الشواهد للعيني، فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد، الزند الوريّ في الجواب عن السؤال السكندريّ.

فن الأصول والبيان والتصوف: شرح لمعة الإشراق في الاشتقاق، الكوكب الساطع في نظم جمع الجوامع، شرحه، شرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد، نكت التلخيص يسمى الإفصاح، عقود الجمان في المعاني والبيان، شرحه، شرح أبيات تلخيص المفتاح، مختصره، نكت على حاشية المطوّل لابن الفنريّ رحمه الله تعالى، حاشية على المختصر، البديعيّة، شرحها، تأييد الحقيقة العليّة وتشييد الطريقة الشاذلية، تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان، درج المعالي في نصرة الغزالي على المنكر المتغالي، الخبر الدالّ على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، مختصر الإحياء، المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة، النقاية في أربعة عشر علماً، شرحها، شوارد الفوائد، قلائد الفرائد، نظم التذكرة، ويسمى الفلك المشحون. الجمع والتفريق في الأنواع البديعية.

فن التاريخ والأدب: تاريخ الصحابة وقد مرّ ذكره، طبقات الحفاظ،

طبقات النحاة: الكبرى والوسطى والصغرى، طبقات المفسرين، طبقات الأصوليّين، طبقات الكتّاب، حلية الأولياء، طبقات شعراء العرب، تاريخ الخلفاء، تاريخ مصر هذا، تاريخ سيوط، معجم شيوخي الكبير يسمَّى حاطب ليل وجارف سيل، المعجم الصغير يسمى المنتقى؛ ترجمة النووي، ترجمة البلقيني، الملتقط من الدرر الكامنة، تاريخ العمر؛ وهو ذيل على إنباء الغمر، رفع إلباس عن بني العباس، النفحة المسكية والتحفة المكّية، على نمط عنوان الشرف، درر الكلم وغرر الحكم، ديوان خطب، ديوان شعر، المقامات، الرحلة الفيومية، الرحلة المكية، الرحلة الدمياطية، الرسائل إلى معرفة الأوائل، مختصر معجم البلدان لياقوت، الشماريخ في علم التاريخ، الجمانة، رسالة في تفسير ألفاظ متداولة، مقاطع الحجاز، نور الحديقة من نظم القول، المجمل في الرد على المهمل، المنى في الكنى، فضل الشتاء، مختصر تهذيب الأسماء للنووي، الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية، رفع شأن الحبشان، أحاسن الأقباس في محاسن الاقتباس، تحفة المذاكر في المنتقى من تاريخ ابن عساكر، شرح بانت سعاد، تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء، قصيدة رائية، مختصر شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل.

وبعد هذه الحياة العلمية المليئة توفي الإمام جلال الدين السيوطي في الخميس تاسع شهر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ ودفن بجوار خانقاه قوصون خارج باب القرافة، بعد أن ملأ الدنيا علماً وخيراً وصلاحاً.

ترجمة الإمام ابن أبي الدنيا

اسمه ونسبه:

عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، أبو بكر القرشي، الأموي، مولاهم، البغدادي الحنبلي[1]، المشهور بابن أبي الدنيا[2].

ولد ببغداد سنة ٢٠٨هـ - ٨٢٣م، في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) آخر العصر العباسي الأول، في عهد الحضارة الإسلامية الذهبي.

---

(١) في هدية العارفين للبغدادي: ٤٤١/٥، «الشافعي» وهو خطأ.

(٢) مصادر ترجمته: ابن أبي حاتم - الجرح والتعديل: ١٦٣/٥، ابن النديم - الفهرست: ١٨٥/١، الخطيب - تاريخ بغداد: ٨٩/١٠ - ٩١، ابن أبي يعلى - طبقات الحنابلة: ١٩٢/١ - ١٩٥، المسعودي - مروج الذهب: ١٢/١ - ١٣، ٥٠/٥ و ١٧٤، ابن الأثير - الكامل: ١٥٥/٧: السمعاني - الأنساب: ٩٦/١٠ - ٩٧، ابن الجوزي - المنتظم: ١٤٨/٥ - ١٤٩، المزي - تهذيب الكمال: ٣٩٥/٧ ب، الذهبي - سير النبلاء: ٣٩٧/١٣ - ٤٠٤، وتذهيب الكمال ١٨٤/٢ ب، وتذكرة الحفاظ: ٦٧٧/٢ - ٦٧٩، والعبر: ٥٦/٢، ومختصر دول الإسلام: ١٣٣/١، ابن كثير - البداية والنهاية: ٧١/١١، ابن تغرى بردي - النجوم الزاهرة: ٩٦/٣، ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات: ٤٩٤/١ - ٤٩٥، ابن حجر - تهذيب التهذيب: ١٢/٦ - ١٣، وغيرهم. وانظر ترجمته المفصَّلة في مقدمة «كتاب الصمت وآداب اللسان» للمحقق.

في هذه المدينة العامرة الزاخرة (بغداد) نشأ ابن أبي الدنيا حيث المحدث والفقيه والمؤدب والزاهد هم أبناء هذا المجتمع ومادته، وكان لظاهرة العلم والزهد أبلغ الأثر في بناء شخصية ابن أبي الدنيا وتكوينه العلمي.

بيئته التي نشأ فيها:

كانت أسرة ابن أبي الدنيا أسرة خير وفضل، وبيته بيت علم وصلاح.

فأبوه من العلماء المهتمين بالحديث وروايته، مما ساهم في نشأته العلمية، وتكوينه في وقت مبكر.

فحببته أسرته في العلم والعلماء، ودفعت به إلى حلق العلم، فأقرأته القرآن، والفقه، وحببته في سماع الحديث وكتابته. وبحكم أنَّ والده كان أحد العلماء فقد مَكَّنَهُ ذلك مِنَ السماع من أعلام العصر وحفاظه وَسِنُّه دون البلوغ، ومِنْ هؤلاء الحفاظ سعيد بن سليمان الواسطي ـ سعدويه ـ (ت ٢٢٩هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وخالد بن خداش البصري (ت ٢٢٣هـ)، فأدرك بهؤلاء وطبقتهم إسناداً عالياً، وشارك أصحاب الكتب الستة في كثير من شيوخهم. وقد دلت بعضُ الروايات على أَنَّهُ استقل وأخذ يطوف على المشايخ بنفسه، وسنه دون العاشرة[1].

وبهذه العناية المركزة والمبكرة من أسرة ابن أبي الدنيا، وبما كان له من الهمّة والإقبال الكبير استطاع أَنْ يجمع علماً غزيراً ويتتلمذ على مئات المشايخ من أئمة العصر وحفاظه. قال الذهبي: «وقد جمع شيخنا أبو

---

(١) الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد: ١٠/٩٠، ابن حجر ـ تهذيب التهذيب: ٦/١٣، وانظر ابن الجوزي: المنتظم: ٥/١٤٨. وهي رواية إبراهيم الحربي في السماع من عفان بن مسلم الصفار والمعروف عن عفان أنه اختلط في ٢١٩هـ ـ أي قبل وفاته بعام أو أقل ـ وقد تركوا السماع منه بعد اختلاطه، وسيأتي الكلام عليها في منزلته العلمية.

الحجاج الحافظ أسماء شيوخه على المعجم، وهم خلق كثير»[1] ثم ذكر الذهبي جزأً منهم فبلغ عددهم أربعة وتسعين شيخاً. وبلغ عدد شيوخه في كتاب الصمت وحده أكثر من مائتي شيخ.

وبهذا تكونت شخصية ابن أبي الدنيا العلمية، فهو حنبلي المذهب، سلفي العقيدة، زهدي المَشْرَب، وعمل على بث هذه الروح الأخلاقية الإيمانية، ورصد نفسه لها، وأنشأ في تقعيدها وإذاعتها ما يزيد على مائة مصنف.

أثره في مجتمعه:

وكان لابن أبي الدنيا الأثر الكبير في مجتمعه، تَجَلَّى ذلك في تربيته لأولاد الخلفاء[2] الذين هم من أهم طبقات المجتمع، وممن سيتولى مقاليد أمور المسلمين وبصلاحهم تصلح البلاد، ويسعد العباد. كما تَجَلَّى في تدريسه وتعليمه لعدد هائل من طلبة العلم، وقد تخرج على يديه منهم جمع غفير، أصبحوا من أفراد الأمة عِلْماً وصلاحاً.

كما ساهم في الحركة الإصلاحية التي استهدفت تربية الجماهير العظيمة المقبلة على هذا الدين عن طريق التأليف والتصنيف مقتفياً أثر شيخه الإمام أحمد ومَنْ قبله مِنْ أمثال عبد الله بن المبارك وسفيان الثوري، فألّف في التربية والزهد والرقائق مؤلفات جَمَّة، وصفها الحافظ ابن كثير[3] فقال: «المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة الذائعة في الرقاق وغيرها، وهي تزيد على مائة مصنف، وقيل: إنها نحو الثلثمائة مصنف».

ويكفي للدلالة على حرصه في تسديد المسلمين، وتحذيرهم من

---

(١) الذهبي ـ سير النبلاء: ١٣/٣٩٧.

(٢) انظر تفصيل ذلك في فصل «مكانته العلمية».

(٣) البداية والنهاية: ١١/٧١.

مزالق الشيطان قيامه بوضع هذه التآليف الوافرة في ميدان الأخلاق والتربية والإصلاح، وعلى رأسها «كتابُ الصمت وآداب اللسان»[1] فإنه قد صنفه في فترة كانت مشحونة باللغط واللغو والانقسامات وما يترتب عليها من مشاحنات، وهو أمر يفرزه الترف الفكري، وتعين عليه البطالة وفي مثل هذا الجو يزخرف الشيطان للناس حب الكلام حتى تصبح شهوة مستحكمة، ويُزَيِّنُ لكل قائل مقالته. وهذا ينبهنا أيضاً ـ إلى أن الحافظ ابن أبي الدنيا كان مُرَبِّياً مع كونه عالماً، وداعية قصد بالتصنيف نصيحة الأُمة والأخذ بيدها، لا مجرد التصنيف فحسب، فكانت مصنفاته هادفة، لذا عمّ نفعها، وذاع صيتها، وعظم أثرها.

واستمر أبو بكر بن أبي الدنيا مؤدياً لرسالته إلى آخر حياته وظل يبثُّ العلم، ويتصدر لتدريسه وقد جاوز السبعين من عمره. إذ سمع منه كثير من الطلبة في آخر حياته وحتى السنة التي توفي فيها. أمثال الخُتَّلي عبد الرحمن بن أحمد البغدادي[2] (ت بضع وثلاثين وثلاثمائة)، وابن الجراب إسماعيل بن يعقوب البغدادي البزاز[3] (ت ٣٤٥هـ).

حزمه ورجولته:

لقد حفظت لنا بعض المصادر صورة مشرقة من صور الحزم والرجولة في شخصية ابن أبي الدنيا فإنه قال مرة: (كنت أؤدّب المكتفي فأقرأته يوماً «كتاب الفصيح» فأخطأ فقرصت خده قرصة شديدة، وانصرفت، فلحقني رشيق الخادم فقال: «يقال لك: ليس من التأديب سماع المكروه. قال: فقلت: سبحان الله أنا لا أسمع المكروه غلامي ولا أمتي، قال: فخرج إليّ ومعه كاغد، وقال: يقال لك: صدقت يا أبا بكر، وإذا كان يوم السبت تجيء على عادتك. فلما كان يوم السبت جئته، فقلت: أيها الأمير، تقول عني ما

---

(١) انظر الفصل الذي عقدناه عن الكتاب وأهميته.

(٢) انظر ترجمته في الفصل الثاني «شيوخه وتلاميذه».

(٣) الخطيب ـ تاريخ بغداد: ٣٠٤/٦، الذهبي ـ سير أعلام النبلاء: ٤٩٧/١٥ ـ ٤٩٨.